سامي خشبه

دروس من عصر عبد الناصر

ـ في ذكراه الرابعة ـ

يصدر هذا العدد من « الآداب »، بعد ايام قليلة من مرور الذكرى الرابعة لرحيل جمال عبدالناصر ، ذلك الرجل الذي نكأ جراحا كان يبدو انها اندملت ، وفتح جراحا جديدة كان الواجب ان تفتح لتهيء للدم الفاسد فرصة الخروج ، ونزع الضمادات عن جراح ثالثة كانت فاغرة الافواه لم تزل .

ولعل مرور الاعوام ان يكون قد خفف قليلا من الاحساس بوقع الكارثة ، او حتى يزيل عن وفاة الزعيم صفة « الكارثة » وان يفسح المجال لرؤيتها في منظورها الانساني والاجتماعي والسياسي والحضاري الطبيعي .

لقد اتاحت وفاته الفرصة لافاع كثيرة لكي تطل برؤوسها في وطننا العربي ، وفي مصر ، ولكن وفاته ـ او حتى « فقدنا » له ـ اتاح الفرصة لكي تتفتح طاقات وابواب كثيرة امام جماهير الشعب المصري ـ على الاقل ـ لكي تستعيد حقها في التساؤل عن مصيرها، وصنعه ، وتحرير الصراع الاجتماعي من عملية « تاميم » فرضتها « شخصية » الزعيم التي تكاثفت في صنعها عوامل فردية وحضارية وسياسية كثيرة ، ولكي تستعيد هذه الجماهير حقها ـ خطوة خطوة ولكن بتاكيد ـ في رفض الاكتفاء بكلمات من لم يكن يشك فيه احد او يشذ عن الثقة الاجماعية فيه مواطن « صالح » .

أطلت افاع كثيرة ، في مصر وفي خارج مصر ، بعضها يحاول ان يتطاول لكي يرثه ولكي يفرض على الامة ما يشبه القدر بان تظل ارادتها ، وحركتها الاجتماعية ، حبيسة ارادة « زعيم » يتوحد في وحدانيته الكل ، وبعضها يحاول ان يهدم المآثر الخلاقة التي قاد عبد الناصر شعبه في معارك انجازها التي دفعنا من اجلها الكثير من سنوات اعمار جيلين متتاليين ، والكثير من الدم والدموع والعرق والرخاء. والمدهش ان مدعي حق الوراثة وحاملي معاول الهدم معا ، لم يكتشفوا ان عصر عبدالناصر ـ لا حكمه ولا سلطاته ـ قد ترك بحكم المنجزات نفسها ، وبحكم تجارب المعاناة مع جوانب القصور والخطأ ، سمة اساسية من سمات الشعب العربي في مصر خاصة ، وسمة من سمات الامة العربية كلها في مرحلة تاريخية كاملة افتتحتها « ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » ولم تنته بعد .

لم يعرف مدعو الوراثة ، كما لم يعرف المطالبون بهدم كل شيء والعودة بالتاريخ الى ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ان المعارك التي خاضها عبدالناصر ، انتصاراته او هزائمه ، الكاملة او الناقصة ، كانت الاولى فيها مكاسب حقيقية لحركة التحرر الوطني والقومي والتحول الاجتماعي المصرية والعربية ، فهي بالتالي في حرز لا يطال بين ايدي جماهير الشعب العامل نفسها ، وكانت ثانيها ـ الهزائم ـ تجارب حقيقية ، عركت الامة نفسها اكثر مما عركت عبدالناصر، خرجت الامة منها اكثر وعيا بحقيقة مصالحها وحقيقة الدور الذي ينبغي ان تلعبه قواها السياسية المنظمة في سبيل تجاوزالهزائم ، وتدعيم المكاسب المحققة ، والتمهيد للانتقال الى المرحلة التاريخية التالية الضرورية .

احداث الايام الاخيرة ـ او الاسابيع الاخيرة على اكثر تقدير ـ تثبت هذه الحقيقة على وجهها . لقد تكرر من جماهير الشعب العامل في مصر رفض « وراثة » سلطان عبد الناصر ، او وضعه المتميز الذي املته عوامل خاصة كثيرة ، تكرر هذا الرفض اكثر من مرة وعلى اكثر من مستوى ، سواء جاء هذا الوارث المدعي من الداخل او من الخارج.

ولكن الاكثر اهمية هو تجربة الايام الاخيرة ـ من خلال المناقشات التي فتحت في مصر حول تطوير الاتحاد الاشتراكي ـ التي اثبتت ان جماهير العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين الثوريين الحقيقيين ، هم القادرون حقا على حماية القاعدة الاقتصادية للتطور المادي للمجتمع المصري (القطاع العام) وعلى حماية اطار التحالف الوطني بين قوى الشعب العاملة حيث يتمتع العمال والفلاحون بنسبة النصف، وبالتالي اثبتت هذه القوى الاساسية الدافعة لحركة المجتمع انها الوريثة الوحيدة حقا « لسلطات » عبد الناصر ، ثم للمكاسب التي احرزت تحت قيادته لحركة التحرر الوطني والقومي والتحول الاجتماعي .

من خلال مناقشات تطوير الاتحاد الاشتراكي ، برزت كل اشكال الفكر الرجعي واليساري الطفولي ، تطالب بالسماح بتشكيل الاحزاب. وكانت القوى الرجعية تعرف انها هي الرابحة في حالة اطلاق حرية تكوين الاحزاب او حصرها في حزبين ، بينما لم يكن الفكر اليساري الطفولي قادرا على تبين ان استمرار فرصة الفكر اليساري في التعبير عن نفسه بوضوح واستمرار فرصة فرض نوع من الولاء لمكاسب الجماهير وللتحالف الوطني المعادي للاستعمار والصهيونية والملتزم عربيا ، انما هي فرص يتيحها في الحقيقة اطار التحالف الوطني نفسه.ان التحالف الوطني لقوى الشعب العامل ، المعادي للاستعمار والصهيونية والملتزم بالتنمية الاجتماعية وبحد ادنى من التضامن العربي ، انما هو تحالف « مفروض » على القوى الرجعية المصرية وضد مصالحها في الحقيقة ، وليس من صالح القوى العاملة ان تفكه باي شكل ، توهما منها انها

ستتمكن من تكوين احزابها الديموقراطية او العمالية وتشكيل «جبهة» جديدة ، تخلصها من القوى الرجعية وتؤمن لها طريق التقدم .. كل هذا بضربة واحدة وفي لحظات قصيرة .

وقد تبينت السلطة المصرية هذه الحقيقة من خلال الحوار حول التطوير ، الذي ارادت القوى الرجعية واليسارية الطفولية تحويله الى حوار حول الغاء التحالف اصلا . ولم تجد السلطة المصرية من تلجأ اليه حقا سوى جماهير العمال والفلاحين والطلبة : بخبرتهم التي كسبوها من عصر عبد الناصر ، تمكنوا من حماية المكاسب التي حققوها في معاركهم تحت قيادته . ولن تكون هذه بالتأكيد معركتهم الاخيرة من اجل حمايتها ، بل انهم لم يدخلوا بعد اولى معاركهم من اجل تطويرها .

* * *

ولكن هذه « المعركة » نفسها ، التي سبقت الذكرى الرابعة لرحيل عبد الناصر انما تؤكد معنى اساسيا من معاني « النقص » في تجربة الجماهير التي عاشت عصر عبد الناصر ، والتي تعيش وتواصل مسيرة التقدم الوعرة من بعده .

لقد اثبتت هذه المعركة ان المكاسب التي حققتها معارك عبد الناصر المنتصرة ، كانت تتعلق في الاساس بجانب من البناء التحتي للمجتمع : لقد ناضل العمال من اجل الابقاء على القطاع العام ومشاركتهم في الارباح والادارة وقانون العمل والتأمين ضد البطالة والتامين الصحي: الخ . وناضل الفلاحون من اجل المحافظة على الارض التي عاد لهم نصيب منها (رغم خسارتهم المحققة من خلال عملية الاستنزاف التي يعرضهم لها ما يسمى بالتسويق التعاوني والجمعيات التعاونية .. الخ) . ولكن المعركة نفسها ، وشكل الحياة في مصر الان ، يثبت ان الابقاء على البناء الفوقي (الثقافي والايديولوجي) للمجتمع على حاله القديم ، انما يعرض جماهير المدافعين عن المكاسب المادية نفسها للتأثر الخطير بتضليل القوى الرجعية السياسي ، او اسفافها الفني، وللتأثر بمحاولات الهاء هذه الجماهير عن مصالحها الحقيقية بأشكال الاعمال الثقافية والدعائية ، التي تستخدم كل شيء : من الدين الى الدعارة ، ومن منابر الوعظ في المساجد الى المجلات الثقافية ، ومن شاشات السينما ومنصات المسارح الى المطبوعات الرخيصة التي تباع في المواصلات العامة او توزع مجانا .. من اجل المحافظة على البناء الفكري للمجتمع في اطاره الغيبي القديم من ناحية ، واغرائه ـ اذا شاء التحرر من هذا الاطار ـ بالانحلال او التعصب من ناحية اخرى.

ان تغيير جانب محدود من البناء التشريعي (القانون التجاري والقانون الدستوري اساسا) لم يكن كافيا لتغيير البناء الفوقي (الثقافي والايديولوجي) كله للمجتمع ، لكي يشرع مجتمع ثورة التحرر الوطني والقومي ، الذي حقق تحويل جانب اساسي من بنائه المادي التحتي لكي يشرع في اكتساب بناء فوقي معبر حقا عن مستقبله ، وليس فقط عن حاضره القائم .

ومن هنا تبرز اهمية المعركة التي لم يخضها عبد الناصر بقوة في حياته ، والتي ربما يكون قد تجاهلها او لا يكون قد اكتشف اهميتها اصلا : معركة تغيير القيم الفكرية والاخلاقية السائدة عن طريق « اعادة التربية » ، واكتشاف ان القوى صاحبة المصلحة في تغيير البناء التحتي للمجتمع ، هي نفسها القوى القادرة على ان تتحرر عقليا وعلى ان تقدم للمجتمع « مجموعة قيمه » الجديدة المعبرة عن العصر المقبل الجديد .

لقد تحدث عبد الناصر كثيرا عن الطهارة الثورية وعن الالتزام الثوري ، وتحدث عن الاخلاق الجماعية وعن المحبة والتعاون ، وتحدث عن دور المثقف وريادة الثوري .. ولكن المشكلة كانت ان حديثه كان يتخذ طابع « الوعظ » الذي لا يستطيع ان يغير ما يفرضه الواقع نفسه ! والواقع كان يقول ان اصحاب المصلحة في تدمير منجزات معارك عبد الناصر والتهامها لصالحهم هم الذين يشكلون صلب وجماع الطبقة السائدة التي تمد المجتمع كله بقيمه من خلال اجهزة الدعاية والاعلام والتثقيف والتعليم .

وهذه هي القضية التي ربما كان على المثقفين الثوريين ان يواجهوها الان ، الى جانب مهامهم الاخرى الكثيرة .

لن يتأكد بناء عصر عبد الناصر في ضمير شعبنا سمة اساسية من سمات تكوينه ، الا اذا انجز مثقفونا الثوريون استخلاص « قيمنا الثورية العلمية » ، وتمكنوا من تحويلها بالنضال اليومي الى اسلوب للحياة تعيشه القوى الاجتماعية الاساسية صانعة الحياة والمدافعة عنها في بلادنا ، لكي تكون هي القيم السائدة بعد ان تكتسح قيم الطبقة التي تريد ان تلتهم مكاسب عصر عبد الناصر .

القاهرة

دار الاداب تقدم

يوسف شرورو

في

عين في النهار

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا